النقد البيئي؛ الرؤيــة والتطبيــق

دراسة تطبيقية لنماذج شعرية من شعر المدينة والريف للشاعر الجزائري عبد الملك بومنجل

Environmental criticism; vision and implementation An applied study of poetic models from the poetry of the city and the countryside of the Algerian poet Abdelmalek Boumendjal

فريد عوف*

جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل ،(الجزائر)

aouffarid@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: .2023/01/02 تاريخ القبول:2023/04/18 النشر:2023/05/31.

ملخص:

يعدّ النقد البيئي أو الإيكولوجي حقلا نقديا جديدا شاع في التسعينيات من القرن العشرين، عُرف في الأدب الأوروبي والأميركي، وكان ويليام روكيرت أوّل ناقد قام بتوطين مصطلح النقد البيئي Ecocriticism في مقالته (الأدب وعلم البيئة، تجربة في النقد البيئي سنة 1978م)، وهو يهتمّ بقراءة تمثيل منظومة البيئة الطبيعية في العمل الأدبي ، وإن كانت هذه العلاقة قديمة قدم الأدب، فإنّ النقد البيئي يتميّز بعمق الرؤية للطبيعة، وبُعد النظر، ويحمل في طياته شعارا هو حمايتها من الإتلاف والتخريب، ونشر الوعي البيئي.

وفي هذه الورقة البحثية تقديم مفاهيمي لتأصيل النقد البيئي، ثمّ دراسة تطبيقية وفق آليات هذا المنهج لنماذج شعرية من شعر المدينة والريف للشاعر الجزائري عبد الملك بومنجل هي على التوالي: "بدوي الجبل"، "وشربتُ جمرك يا مدينة"، و "وحي المرابع"، يقدّم فيها صورة البيئة الريفية والحضرية. فكيف كانت صورة البيئة في القصائد جماليا؟ وهل وُفّق الشاعر في استخدام عناصر الطبيعة وتصوير محاسنها ومساوئها؟ وهل للمكان علاقة بالتجربة الوجدانية للشاعر؟ وما هي تجليات شعرية المكان في تلك القصائد؟

الكلمات المفتاحية: نقد ؛ بيئة ؛ طبيعة ؛ ريف ؛ جمال؛ محيط

Abstract :

Ecocriticism is a new critical field that became popular in the nineties of the twentieth century, known in European and American literature. Representing the natural environment system in literary work, although this relationship is as old as literature, environmental criticism is characterized by a deep vision of nature, foresight, and carries with it a slogan that is to protect it from damage and sabotage, and to spread environmental awareness.

In this research paper, a conceptual presentation of the rooting of environmental criticism, then an applied study according to the mechanisms of

this approach to poetic models from the poetry of the city and the countryside of the Algerian poet AbdelMalek Boumendjal are, respectively: “Bedouin of the mountain”, “I drank your customs, city”, and “Wahi Al-Rab’a’”, In which he presents the image of the rural and urban environment, how was the image of the environment in the poems aesthetically pleasing? Was the poet successful in using the elements of nature and portraying its advantages and disadvantages?

Keywords: Criticism; environment ; nature ; countryside ; aesthetics; environment

*المؤلف المرسل

المقدمة:

النقد البيئي أو النقد الإيكولوجي فرع جديد من فروع النقد الأدبي، ظهر في مرحلة ما بعد الحداثة، يقوم على الإقرار بالعلاقة القائمة بين الأدب والبيئة، ومن ثمَّ فهو يتناول النصوص الإبداعية من منظور بيئي، وعلى ضوء نظرية بيئية إيكولوجية بعد تنامي النداءات للمحافظة على البيئة من التخريب والاستنزاف البشري الذي تتعرض له في القرن العشرين.

وظهر مصطلح (النقد البيئي) في الأدبين الأوروبي والأميريكي، وكان وليام روكيزت أوّل ناقد غربي قام بتوطين مصطلح (النقد البيئي) « Ecocriticism » في مقالته الموسومة بـ (الأدب وعلم البيئة، تجربة النقد البيئي عام 1978م)، ثمّ أصدر كتابا بعنوان (النقد الأدبي البيئي عام 1994م).

والحقيقة التي لا تخفى على العيان هي أنّ علاقة الأدب بالبيئة ليست حديثة، فهي ممتدّة الجذور في تراثنا الأدبي، إذ شاع عن العرب قولهم: "الشعر ديوان العرب"و "الشاعر ابن زمانه" ، حيث سجّل شعراء الجاهلية بيئتهم الطبيعية والجغرافية، ورحلاتهم في الفيافي، وحلّهم وترحالهم، وصوّر الشعراء العباسيون بيئتهم الطبيعية ومظاهر العمران، كما تفنّن شعراء الأندلس في وصف معالم الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس، هذا وكان للطبيعة شأن عظيم عند الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث. ومن ثمَّ فإنّ كلّ ما سبق يمكن أن نسميه بالمصطلح المعاصر "الأدب البيئي".

أمّا النقد البيئي فهو حديث العهد بالظهور، يتّخذ من (الأدب البيئي) موضوعا له، حيث يعكف على استخلاص المكوّنات البيئية من النصوص الأدبية، وينظر فيها الناقد بحسّه الجمالي.

ومن هنا كانت دراستنا الموسومة بـ (النقد البيئي؛ الرؤية والتطبيق . دراسة تطبيقية لنماذج من شعر المدينة والريف للشاعر الجزائري عبد الملك بومنجل، وهي قصيدة "بدوي الجبل" من ديوان (الدك(تا)تور)، "وشربتُ جمرك يا مدينة" من ديوان (عناقيد الغضب)، و"وحي المرابع" من ديوان (طهر الجداول)، تناول فيها الشاعر صورة البيئة الريفية والحضرية، فكيف كانت صورة البيئة في القصائد جماليا؟ وهل وُفّق الشاعر في استخدام عناصر الطبيعة وتصوير محاسنها ومساوئها؟.

تلكم هي الإشكالية المحورية لهذه الورقة البحثية التي تضمّنت عنصرين أساسيين: الأولّ نظري لتقديم المنهج البيئي وأصوله للباحثين، والثاني: تطبيقي وذلك بدراسة القصائد من منظور النقد البيئي،

ولا أقول إنّ هذه الدراسة جديدة، فقد سبقت محاولات تطبيقية لأعمال شعرية وروائية عربية نذكر منها : النقد الأدبي البيئي؛ قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئية، وممارسة تطبيقية على قصة "رأيت النخل" لرضوى عاشور للباحث هاني علي سعيد محمد (جامعة الفيوم)، و(أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية) للباحث محمد أبو الفضل بدران في الملتقى الدولي الرابع للغة العربية، حيث تناول نماذج من الشعر الجاهلي من زاوية النقد البيئي، وحداثة هذه الدراسة هي المدوّنة، فرغم كثرة إقبال الباحثين على دواوين الشاعر عبد الملك بومنجل لدراستها أسلوبيا أو فنيا أو بنيويا أو سيميائيا، فإنّنا لا نجد دراسة لقصائده وفق المنهج البيئي، وهذا ما يزيد من أهمية هذا الموضوع الذي نروم من خلاله البحث عن سمات إبداع الشاعر عبد الملك بومنجل في وصف البيئة البدوية والحضرية، ودفاعه عن الحياة الريفية.

1. البيئة ؛ المصطلح والماهية:

لا يمكن الحديث عن نقد بيئي قبل أن نتعرّف على البيئة وأنواعها، وسماتها، وعلاقتها بالأدب؛ لأنّها هي التي مهّدت الطريق لظهور مصطلح (النقد البيئي) في القرن العشرين.

1-1. البيئة مفهوما :

أ- لغة: تتفق المعاجم اللغوية على أنّ كلمة البيئة تدلّ على "المكان الجغرافي"، وهي من أصل لاتيني « Ecologia »مركبة من جزئين : الأول: Oikos وتعني البيت أو المنزل ، والثاني: Logos ويعني العلم أي علم دراسة المنزل أو الوسط المعيشي أو المحيط البيئي (السلطاني، النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، صفحة 14) ، حيث وردت في (معجم اللغة العربية المعاصرة) في مادة (ب و أ) بمعنى "مكان تتوافر فيه العوامل المناسبة لمعيشة كائن حي أو مجموعة كائنات حيّة خاصة، كالبيئة الاجتماعية، والطبيعية، والجغرافية...تبوّأ المكان/ تبوّأ بالمكان: توطّنه، نزله وأقام به ((والذين تبوّءو الدار والإيمان))،،،" (أحمد مختار، 2008، صفحة 258). ومعنى هذا أنّ البيئة حيّز جغرافي تتوفر فيه الظروف المناسبة وشروط المعيشة للإنسان وكلّ الكائنات الحيّة.

وفي (معجم لاروس الفرنسي) كلمة (بيئة) « Environnement » اسم مذكر (من المحيط) مرادفها : (إطار – حي) تدلّ على معاني عدّة منها (DICTIONNAIRE DE FRANÇAIS LAROUSSE EN LIGNE):

. ما يحيط من جميع الجهات. الحي: قرية في بيئتها الجبلية.

. جميع العناصر الحيوية التي تحيط بالفرد أو النوع، وبعضها يساهم بشكل مباشر في تلبية احتياجاته.

. مجموعة من العناصر الموضوعية (جودة الهواء ، الضوضاء، إلخ) وذاتية (جمال المناظر الطبيعية ، جودة الموقع ، إلخ) التي تشكل البيئة المعيشية للفرد.

الجوّ والمناخ الذي يجد المرء نفسه فيه. السياق النفسي والاجتماعي: بيئة سياسية معادية بشكل خاص. ومن كلّ ما سبق، فالبيئة هي كلّ موضع أو مكان تتوفر فيه شروط المعيشة (المنظر، الهواء، العناصر الحيوية التي يحتاجها الكائن الحيّ).

ب . اصطلاحا:

أولا: المفهوم العلمي:

يرتكز المفهوم العلمي للبيئة على الظروف والعوامل التي تحيط بالإنسان مؤثرا أو متأثرا، وفي هذا المسار عُرفت البيئة بأنّها "مجموع الظروف والعوامل الخارجيــة التي تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها، أو هي كلّ الشروط والظروف والمؤثرات المحيطة والتي تؤثر على تطور كائن أو مجموعة من الكائنات" (سلامة، 1998).

ثانيا: المفهوم القانوني:

وضع مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية في ستوكهولم سنة 1972م تعريفا للبيئة بأنّها "رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما، وفي مكان ما، لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته" (السملالي، 2006، صفحة 29). والملاحظ أنّ البيئة هي جملة الإمكانات المادية والظروف الاجتماعية التي تتيح للإنسان نمطا معيشيا حسنا أو راقيا.

ثالثا: في العلوم الإنسانية والاجتماعية:

لا يكاد يختلف مفهوم البيئة عند علماء الاجتماع عن المفهوم العلمي عدا إضافة العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ويقترح أحمد عبد الكريم سلامة في كتابه (قانون حماية البيئة) هذا التعريف، حيث قال: "البيئة هي مجموع العوامل الطبيعية والحيوية والعوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتجاور في توازن، وتؤثر على الإنسان والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر" (سلامة، 1998، صفحة 100). والبيئة في نظره نوعان: البيئة الطبيعية؛ وهي من خلق الله تعالى، والبيئة الحضرية أو الاجتماعية؛ هي من صنع الإنسان، وتشمل المنشآت والمصانع والطرق والحدائق، وغيرها..

2.1– الأدب والبيئــة:

العلاقة بين الأدب والبيئة جدّ عريقة سواء أكان ذلك في الأدب العربي أو الآداب الغربية؛ لأنّ الأديب في محاكاة واتصال دائم ببيئته، لكن هناك حقيقة يجب أن ننبّه إليها هي: "ليس كلّ أدب يصف الطبيعة مثلا يعدّ بيئيا"، فقد وضع الباحثون شروطا يجب توافرها في الأدب ليصير نصا بيئيا منها: أن يحسن تمثّل الأضرار التي حاقت بالمنظومة الطبيعية، ويشارك في حركة نشر الوعي من خلال حركة تنوير عالمية، كما يشترط إحساس الكاتب بالبيئة، وأن يحمل مبدعه همّا بيئيا، وأن يعتنق أفكار الامتزاج والاندماج بالطبيعة داخل النص، والاحتماء بها، وأن تعنى هذه النصوص من مبدأ التحوّل من الاجتماعي إلى الطبيعي، وأن يحسن التعبير عنها جماليا بخيال

أخاذ يكون مسئولا عن تربية الذوق الطبيعي عند المتلقي، وتنمية الحاسة الأخلاقية والجمالية في تعامله مع المنظومة البيئية.

وإذا أمعنا النظر في شعرنا الجاهلي ألفيانه نصّا شعريا بيئيا ، حيث تتشكّل بيئة الطلل مرتكزا رئيسا في الشعر العربي هي نقطة انطلاق الشاعر لوصف معاناته وصراعه مع الطبيعة القاسية، وقد ذكر مصطفى ناصف في كتابه (قراءة ثانية لشعرنا القديم) هذه العناصر الطبيعية التي تتردّد في قصائد الشعر الجاهلي، ولفتت انتباههم هي: الطلل، وأسطورة الفرس، وأمومة الناقة .

وهذا لا يعني أنّهم أغفلوا عناصر الطبيعة الأخرى. فعلى الرغم من الطابع الصحراوي والجفاف والقحط ورحلة البحث عن الماء والكلأ، فإنّ الشاعر عبيد بن الأبرص يستوقفنا على منظر طبيعي أثار إعجابه، فرسم لوحة فنية وأبدع في وصفها أيّما إبداع، وهي ظاهرة البرق والمطر، يقول الشاعر (بن الأبرص و عدرة، 1994، الصفحات 45-46):

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه — من عارض كبياض الصّبح لمّاح

دان مسفّ فويق الأرض هيدبه — يكاد يدفعه من قام بالرّاح

كأنّ ريّقه لما علا شطبا — أقراب أبلق ينفي الخيل رمّاح

كما شكّل الفرس عنصرا حيويا في شعرهم، لارتباطه بحياة الفروسية والشجاعة، فهو من جهة وسيلة نقل وتنقّل، ومن جهة أخرى لخوض الحروب التي لا تكاد تنقطع، فيصوّر لنا الشاعر امرؤ القيس فرسه الذي تجتمع فيه كلّ المواصفات من سرعة وإقدام وكرّ وفرّ، فقال (القيس و محمد أبو الفضل، 1984، صفحة 19):

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السّيل من عل

وفي العصر العباسي اعتنى الشعراء بوصف البيئة الاصطناعية لما شهده هذا العصر من تقدّم حضاري، وتفنّن في تصميم الحدائق والحقول، والقصور، والبرك، وانبهر الشعراء بهذه البيئة الحضرية الجديدة، فها هو الشاعر البحتري يصوّر بركة المتوكل بريشته، ويضفي فيها من خياله، إذ يقول (بوابة الشعراء، 2007):

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها — والآنسات إذا لاحت مغانيها

بحسبها أنّها في فضل رتبتها — تعد واحدة والبحر ثانيها

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها — في الحسن طورا وأطوارا تباهيها

وقد نما الحسّ البيئي أكثر عند الشعراء الأندلسيين، بما حبا الله عزّ وجلّ الطبيعة الأندلسية بجمال خلاّب يسحر الألباب، فأبدع الشعراء في تصويرها وعبّروا عن اندماجهم فيها، فهذا ابن زيدون يقول (فرحات، 1994، صفحة 194):

وَالرَوضُ عَن مائِهِ الفِضِيِّ مُبتَسِمٌ — كَما شَقَقتَ عَنِ اللَبّاتِ أَطواقا

نَلهو بِما يَستَميلُ العَينَ مِن زَهَرٍ — جالَ النَدى فيهِ حَتّى مالَ أَعناقا

أمّا في العصر الحديث فقد ازداد الوعي البيئي لدى الشعراء لإدراكهم قيمتها، والعواقب التي تؤول إليها نتيجة التفريط فيها ، وقد كان أدباء المهجر، وجماعة أبولو، والديوان أكثر احتفاء بالطبيعة، بل جعلوها مدرسة نأخذ منها الدروس والعبر نتيجة اعتناقهم للرومانسية اتجاها فكريا وأدبيا، حيث قال ميخائيل نعيمة وهو منظّر الرابطة القلمية: "الطّبيعةُ أُمّنا الرؤّوم، منها لحُومُنا وعظامُنا، ومنها أنفاسُنا وأنباضنا، ومنها غذاؤُنا وكساؤُنا ومأوانا، ومنها مُهودُنا ولحُودُنا" (ميخائيل، النور والديجور، 1988، صفحة 91).

كما كانت البيئة عنصرا مهّما عند شعراء "الشعر الحرّ"، حيث اتخذوا الطبيعة رمزا للتعبير عن الموقف الشعري سواء أكان عند الشاعرة نازك الملائكة، أو بدر شاكر السياب أو عبد الوهاب البياتي أو نزار قباني، وغيرهم ، ومثال ذلك أنشودة المطر لبدر شاكر السياب، حيث مثّل المطر تارة السقيا، وتارة العذاب والهلاك.

2. النقد البيئي؛ المصطلح، النشأة، وآليات اشتغاله:

1.2. النقد البيئي؛ المصطلح والمفهوم:

ظهر مصطلح النقد البيئي في مرحلة ما بعد الحداثة نتيجة حتمية لانتشار الأدب البيئي ، وتطوّر النظرية الإيكولوجية ، وميلاد المنظمات البيئية المحلية والعالمية، التي دعت إلى العناية بالبيئة وإيقاف نزيف النهب والتخريب والاستغلال اللاعقلاني لها. ومن هنا كان هذا المنهج ضروريا لنشر الوعي البيئي، والتنبيه إلى ما آل إليه الكون من دمار وخراب باستنزاف الثروات، والتفنن في صناعة أسلحة الدمار الشامل، والتجارب النووية التي التهمت الأخضر واليابس.

بادئ ذي بدأ نقرّ بصعوبة ضبط تعريف محدّد للنقد البيئي لحداثته كمنهج نقدي، وتعدّد مصطلحاته، وارتباطه بحقول معرفية أخرى كالدراسات الثقافية ، حيث عُرف بعدد من التسميات كـ"الدراسات الثقافية الخضراء "green cultural studies/، و"الشعرية أو البويطيقا البيئية"ecopoetics/ ، و"النقد البيئي الأدبي "environmental literary criticism"/، و"النقد الإيكولوجي..." Ecocriticism/" (حمداوي، النقد البيئي أو الإيكولوجي، 2012).

لقد تعدّدت تعاريف هذا المنهج، لكنّها تتفق إجمالا على ربط الصلة بين الأدب والبيئة، فمهمّة الناقد هي البحث عن العلاقات بين الأدب والبيئة المادية، وقد عرّفه جميل حمداوي في كتابه (النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفنّ) بقوله: "هو ذلك النقد الذي يهتم بدراسة النصوص والخطابات الأدبية والإبداعية في ضوء نظريات بيئية إيكولوجية متنوعة ومختلفة، تبحث عن مكانة البيئة أو الطبيعة أو المكان أو الأرض أو الحياة داخل الإبداع الأدبي والفني بالتنظير والتحليل والقراءة والفحص والدراسة بغية رصد رؤى الكتاب والمبدعين والمثقفين تجاه البيئة..." (حمداوي و اعراب، النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفنّ، 2020، الصفحات 44-45).

فالنقد البيئي إذًا نقد نصاني لأنّه يهتم بالنص تحليلا وقراءة لاستخلاص ملامح البيئة من حيث مكانتها، أو دراسة المكان الجغرافي، وصور الحياة بصفة عامة في العمل الأدبي.

2.2. نشأة النقد البيئي:

يعدّ النقد البيئي منهجا نقديا فتيّا ظهر في العقد السابع من القرن العشرين، وكانت بدايته في الجامعات الانجليزية (هارفارد، لندن، أكسفورد وغيرها) ، ويشير الباحثون إلى أنّ وليام روكيرت « William Rueckert» هو أوّل من وظّف مصطلح (النقد البيئي) في مقالته (الأدب وعلم البيئة، تجربة في النقد البيئي عام 1978م)، وبعدها أصدر كتابه (النقد الأدبي البيئي عام 1994م). وكان من المنظرين أيضا (جوناثان باث) « Jonathan Path»وكتابه (البيئة الرومانتيكية)، ورئيس جمعية (الأدب والبيئة) البريطانية (جرج جيرارد) « *George* Girard»في دراساته (النقد البيئوي، الإبداع والبيئة، غياب النباتات الأزلية)، و(شيرل بورغيس غلو تفيلي، وهارولد فروم في (مجموعة مختارة من النقد البيئي: أعلام أدب علم البيئة عام 1996م).

وقد اعتنى مجموعة من العلماء والباحثين في الثقافة الأميريكية بدراسات البيئة نذكر منهم (لورانس بويل) وكتابه (الخيال البيئي)، و(مايكل زيمرمان) في كتابه (الفلسفة البيئية). وشاعت في الثقافة الألمانية دراسات بيئية وُسمت بالخضراء، حيث أصدر (جوست هيرماند) كتابه (اليوتوبيا الخضراء في ألمانيا)، وكان أكثر تداولا مصطلح (الدراسات الثقافية الخضراء) و(النقد الأخضر).

هذا عن الجهود الغربية، أمّا الجهود العربية فلا نكاد نجد إلاّ محاولات قليلة في الدراسات النقدية لصعوبة هذا المنهج، وتعدّد مشاربه، ويعدّ (محمد أبو الفضل بدران) أوّل ناقد عربي مهّد الطريق في النقد البيئي بكتابه الذي أصدره سنة 2010م (النقد الأدبي البيئي، النظرية والتطبيق)، و بحث آخر شارك به في المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بعنوان (أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية) سنة 2015م، وصابر محمد الجويلي في دراسته: (صورة الضب في المثل العربي القديم، مقاربة في مرآة النقد البيئي)، وأسماء إبراهيم حسين (النقد الإيكولوجي وتجلياته في روايتي (حرب الكلب الثانية لإبراهيم نصر الله، إسكندرية 2050 لصبحي الفحماوي)، ومحمد فاضل المشلب (البيئة ظهورا شعريا، مقاربة نقدية في أشعار طالب عبد العزيز)، كما أصدر الباحثان جميل حمداوي وأحسن أعراب دراسة بعنوان (النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفنّ) سنة 2020، ويعدّ هذا الكتاب مرجعا مهمّا في تأصيل النقد البيئي.

3.2. مقولات النقد البيئي وآليات اشتغالـه:

لكلّ منهج مقولات نقدية، والنقد البيئي على غرار سائر المناهج النقدية يستدعي حضور مقولات في كل دراسة تطبيقية، وعدّة اصطلاحية اختلف الباحثون في تحديدها؛ لحداثة هذا المنهج. أمّا المصطلحات فقد ذكرها

هاني علي سعيد محمد في دراسته (النقد الأدبي البيئي؛ قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئية، وممارسة تطبيقية على قصة " رأيت النخل" لرضوى عاشور، وهي: (هاني علي، 2022، الصفحات 456-491)

أ.الخيال البيئي:

يحتاج الناقد البيئي إلى الخيال، وهو عنصر أساسي يجب أن يملكه ليعبّر عن إحساسه نحو الطبيعة أو الواقع.

ب . الإيكولوجيا/البيئة العميقة:

وهو إبطال المركزية البشرية، والمساواة مع عناصر الطبيعة الأخرى من خلال أنسنة الكائنات الحية.

ج . الاستدامة:

وهي المحافظة على النظام البيئي، والقدرة على حفظ نوعية الحياة التي نعيشها على المدى الطويل.

د . الحس المكاني:

وهو الربط والاستجابة و ردّة الفعل تجاه مكان ما، وللمكان قيمة عالية في النقد البيئي، لأنّه محيط التفاعلات البيئية.

ه . التناص البيئي:

هي لجوء المبدع إلى استيراد مجموعة من النصوص التي تحتفي بالبيئة والطبيعة في عمله الأدبي.

تلكم هي المصطلحات الشائعة في النقد البيئي، إلى جانب مصطلحات أخرى كالبعد الجمالي، والوعي بالبيئة، وغيرها.

أمّا آليات اشتغال هذا المنهج، فقد أشارت الدراسات إلى أنّ النقد البيئي هو إجابة عن التساؤلات الآتية (السلطاني، النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة) :

. ما إمكانية التداخل الخصب بين الدراسات الأدبية والتداخل البيئي؟ . كيف تمّ تصوير الطبيعة ومظاهرها في هذه القصيدة؟ . ما أثر المكان في حبكة الرواية؟ وتفاعل الشخصيات فيها؟ . هل القيم التي تحملها المسرحية تتفق مع الحكمة البيئية؟ . هل نجحت اللوحة في لف الانتباه إلى ظاهرة طبيعية معينة؟ . هل عالجت قصيدة شاعر، أو قصة كاتب، أو لوحة رسّام مشكلة بيئية؟

هذه هي الأسئلة التي يضطلع الناقد البيئي الإجابة عنها من خلال دراسته للنص الأدبي البيئي. ويبدو واضحا أنّ النقد البيئي يبحث في الخطاب أو النص الأدبي من زاوية تمثيل الطبيعة أو البيئة، والمشكلات التي تعالجها، ومن رؤية جمالية (حضور خيال المبدع)، وتفاعل الأديب مع بيئته، يقول جميل حمداوي: "ينصب النقد البيئي على موضوعة البيئة في الخطابات الأدبية والفنية، ولاسيما الرومانسية منها، باستكشاف أنواع البيئة، واسجلاء مختلف مشاهدها، والتركيز على التخييل البيئي، والإشارة إلى القيم الأخلاقية والدينية المتعلقة بالبيئة، وتبيان اهتمام الإنسان بالبيئة، ورصد مختلف الحلول الممكنة للحد من المشاكل التي تواجه البيئة التي يعيش فيها الإنسان بصفة

عامة، والمبدع بصفة خاصة" (حمداوي و اعراب، النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفنّ، 2020، صفحة 52).

والجدير بالملاحظة أنّه لا يوجد آليات محددة في تحليل الخطاب البيئي ما عدا محاولات وجهود فردية اهتمت بدراسة البيئة وقيمها الفنية والأخلاقية، وجماليات المكان، والتناص البيئي، ولعلّ الدراسة التطبيقية التي كانت في مستوى من الرصانة العلمية والمنهجية دراسة عبد الحميد الحسامي (الضباب أتى..الضباب رحل، قراءة من منظور بيئي) طبّقها على نص بيئي للكاتب الروائي اليمني محمد عبد الوكيل، حيث تناول في هذه الدراسة بنيتين: الأولى بنية رؤيوية وهي رؤية الكاتب للبيئة، والثانية فنية وهي المعجم اللغوي والوصف والشخصيات والمكان.

وهذه البيئة الطبيعية لا نراها إلاّ في الريف، لأنّ المدن عادة ما تكتسحها البنايات والمصانع والازدحام السكاني، فتحجب البصر عن رؤية الوجه الحقيقي للطبيعة، كما تؤثر على عادات الناس وأخلاقهم ومعاملاتهم، فأهل المدن على حدّ قول ابن خلدون فسدت فيهم الفطرة نتيجة الاختلاط، وأثّرت فيهم حياة الدعة والترف.

3. دراسة تطبيقية لنماذج شعرية للشاعر الجزائري عبد الملك بومنجل:

تعدّ قصائد " (بدوي الجبل) (وشربت جمرك يا مدينة) و(وحي المرابع)" من روائع القصائد التي صوّرت المدينة والريف، وعبّرت عن عمق التجربة الشعرية، ونبل المشاعر، وصدق أحاسيس الشاعر عبد الملك بومنجل.

في حين كانت قصائد الشاعر تعبيرا عن موقف شعري ردّا على جلف من المدينة يعيّر بعض أصحابه بالبدوية في قصيدة (بدوي الجبل)، وإجابة عن الجدل القائم بين الريف والمدينة في قصيدة (وشربت جمرك يا مدينة)، ودفاعا عن الحياة الريفية باعتبارها المحطّة الأولى من حياته وطفولته وذكرياته في قصيدة (وحي المرابع).

فقصيدة (بدوي الجبل) من ديوان (الدك(تا)تور) الذي طُبع سنة 2009م، كانت ردّا على ما وقع لبعض أصحابه من تعيير أحد الأجلاف له بأصله الجبلي، كما لو أن الحياة الريفية عار، وعلامة تخلّف ورجعية، مع أن الأمر غير ذلك، لقول الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري (الأمير عبد القادر، 1960، الصفحات 22-27) :

ما في البداوة من عيب تذمّ به   إلّا المروءة والإحسان بالبدرِ

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني   لكن جهلتَ وكم في الجهل من ضرر

بينما قصيدة (وشربت جمرك يا مدينة) من ديوان (عناقيد الغضب) الذي نُشر سنة 2016م، وفيها يشخّص مساوئ المدينة، حيث تنعدم فيها الحرية، ويلتهم الاسمنت الأحاسيس والمشاعر، وتنتشر القيم الهجينة.

أمّا قصيدة "وحي المرابع" فهي من ديوان (طهر الجداول) الذي طُبع سنة 2021م ، ففيها يتحدّث الشاعر عن الريف وذكرياته الجميلة مع أصحابه، والحياة السعيدة، والطبيعة الخلاّبة.

وفي هذه الدراسة سنتطرق إلى تلك النماذج الثلاث وفق منهج نقدي حديث وهو النقد الأدبي البيئي، وسنتاول العناصر الآتية (المعجم البيئي، جماليات المكان، الخيال البيئي، قيم أخلاقية وإنسانية بيئية في القصيدة، والتناص البيئي).

1.3. البيئة في قصائد "بدوي الجبل" "وشربت جمرك يا مدينة"و"وحي المرابع":

العلاقة بين الشاعر والبيئة قوية أكثر من غيره من الناس، لأنّ الشاعر له مزية الإحساس الصادق والنبيل، وملكة التعبير، وخصوبة الخيال، وقد قال ميخائيل نعيمة معرّفا الشاعر: "الشاعر نبيّ و فيلسوف ومصور وموسيقي و كاهن. نبيّ، لأنّه يرى بعينه الروحية ما لا يراه كلّ بشر، ومصوّر، لأنّه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه في قوالب جميلة من صور الكلام. وموسيقي . لأنّه يسمع أصواتا متوازية حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة العالم كلّه عنده ليس سوى آلة موسيقية عظيمة تنقر على أوتارها أصابع الجمال، وتنقل ألحانها نسمات الحكمة الأبدية. وهو يسمع موسيقى في ترنيمة العصفور وولولة العاصفة، و زئير اللجة و خرير الساقية، و لثغ الطفل وهذيان الشيخ. فالحياة كلها عنده ليست سوى ترنيمة . محزنة أو مطربة" (ميخائيل، الغربال، 1991، صفحة 84).

إنّ الشاعر في علاقة دائمة بالطبيعة يحاكيها ويتخذها ملاذا، بل يجعلها فوق عالم البشر، وبذلك يقضي على مركزية البشر، وتسمو الكائنات الأخرى.

وفي المقابل تبدو (المدينة) في صورة مذمومة، لا وجود فيها إلاّ الطبيعة الزائفة، فالمعجم البيئي محصور في البيئة الاصطناعية (الاسمنت) ، وهنا إشارة إلى كثرة البنايات التي اقتحمت الأخضر واليابس، وحجبت الرؤية عن بديع الله في خلقه من سحر الطبيعة وجمالها.

وتتأكّد هذه الصورة أكثر في قصيدة (وشربتُ جمرك يا مدينة) من ديوان (عناقيد الغضب)، حيث يهيمن على النص المعجم البيئي للمدينة، وتبدو بوجهها الشاحب الحزين، فالمدينة (جمر) اغترف منه الشاعر، واكتوى بلهيبه، وهنا يشاطر الشاعر قول الشاعر محمد عبد المعطي حجازي (حجازي، 1982، صفحة 129):

شوارع المدينة الكبيرة

قيعان نار

تجتر في الظهيرة

ما تربته في الضحى من اللهيب

يا ويله من لم يصادف غير شمسها
غير البناء والسياج، البناء والسياج
غير المربعات والمثلثات والزجاج

2.3. المعجم البيئي:

من علامات النبوغ والموهبة الشعرية قدرة الشاعر على اختيار معجم لغوي يناسب موضوعه، ويحقّق له التفرّد والتميّز في شعره فنيا وجماليا، وقد عرّف عبد الملك مرتاض المعجم الشعري بأنّه: "التميّز الذي يميّز النص الإبداعي بمجموعة من الخصائص الفنية التي يتفرّد بها، أو يجب أن يتفرّد بها على الأقل – جدلاً– كل مبدع في أي لغة وفي أي أدب" (مرتاض، 1986، صفحة 246).

ويرتكز النقد البيئي على توظيف الشاعر للمعجم البيئي بمهارة وإتقان، لأنّ الأدب البيئي يستدعي حضور البيئة بكلّ عناصرها الحيّة والجامدة.

ففي قصيدة (بدوي الجبل) اعتمد الشاعر على المعجم البيئي، حيث تظهر عناصر الطبيعة في صورة أبهى وأجمل، بل وتعلو فوق عالم البشر فـ (روضة الريف) و(شرفة الجبل) مصدر الفضائل، منهما تعلّم الشاعر وجاء ليعلّم أهل المدينة الشمائل والأخلاق. فالطبيعة حاضرة بقوة في القصيدة تغازل الشاعر تارة، ويغازلها تارة أخرى، فـ (التربة،السماء، السنابل، الأطيار، الفراشات، الجداول، الأشجار، الشمس، الحقل، الروابي، أغناما...) كلّها عناصر بيئية تمثّل مدرسة منها تخرّج الشاعر، وهي مدرسة الجميع وكتاب مفتوح. على حدّ تعبير ميخائيل نعيمة.

وفي الروابي التي ترتاد قد نهضت فينا الشهامة ، نحييها فتحيينا

فلا طعم، ولا ذوق للحياة في المدينة، فلم نعد نسمع هديل (الحمام)، ولا زقزقة (العصافير)، لأنّ (الجدار، السور، الحديد، الاسمنت) حالت دون أن نرى أو نستمتع بسحر الطبيعة، ونحقّق الأمل لغد جديد، فالأشواق مقيّدة، والحرية منعدمة.

ويعود بنا الشاعر مرّة أخرى إلى البيئة الريفية في قصيدة "وحي المرابع" من ديوان (طهر الجداول)، يعانق فيها الطبيعة التي تربّى في أحضانها، وارتقى إلى سلّم المكارم، فهي تذكّره بأيام الطفولة، فيزداد عشقا لـ(التراب) الذي لعب فيه، ومرح مع أصحابه (في ذلك السهل القريب سقيت من // ماء الجداول أو غدير شعاب)، وعليه فقد هيمن معجم البيئة الريفية في هذه القصيدة ، فألفاظ الريف، والطبيعة تنصهر مع ذات الشاعر (التراب، التلال، النسيم، الجبل، السهل، خضرا، أشجارا، الحقول، أزهارها، سنبلة، الأعشاب، الأغصان، جداول...).

إذًا ثنائية (ريف/ مدينة) عند الشاعر هي (الماضي /الحاضر)، هي الحنين إلى الأمّ و الطفولة، هي الشوق إلى أرض ضمّته، وقرية نشأ فيها، وطبيعة احتضنته بمناظرها وجمالها و زخرفها، والفرار من المدينة ليس

كرها لها، بل لأنّه لم يستطع أن يألفها، ويألف عاداتها ونمط معيشة أهلها، فكلّ ما في المدينة يبدو ممقوتا، والحياة حزينة وزائفة.

3.3. جماليات المكان:

للمكان دور مهمّ في التشكيل الجمالي للنصوص، وتحقيق شعريتها، فالأمكنة بتعبير شاعري هي كالشرفةِ المفتوحة على الأرواح التي سرعان ما تتآلف معها بعلاقة وجدانية تستحضر من خلالها أعم ق النبضات حباً وتجاذباً واندفاعاً لخلق حالة اندماجية مع ظلالها الوارفة في مملكة الذاكرة.

لقد حضرت أمكنة كثيرة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر سواء أكان عند شعراء جيل الثورة مثل: (الأطلس، الأوراس، الجبال، الجزائر، السجن)، وهي أمكنة جغرافية كانت مسرحا لأحداث الثورة، وتطوّرت هذه الأمكنة، وصارت رموزا للتضحية والفداء، وأخذت بُعدا جماليا.

لكن شعراء جيل ما بعد الاستقلال دخل في مواجهة مخلفات الاستعمار، والفوارق الاجتماعية، وتدنّي المستوى المعيشي في الأرياف خاصة، دفع الشعراء إلى النزوح الريفي إلى المدن أو إلى بلاد نائية لتحسين الوضع الاجتماعي.

ومن هنا حَظيت ثنائية (الريف/ المدينة) باهتمام كبير من قبل الشعراء المعاصرين، وكان مدعاة لاستحضار الماضي، واسترجاع الذكريات، والتأمّل في الحاضر والمقارنة بين ما كان وما هو كائن.

ويرتبط المكان بخيال المبدع، هو ما يجعله أكثر شعرية، سواء أكان المكان مفتوحا أو مغلقا، هذا ما نجده في قصائد الشاعر عبد الملك بومنجل " بدوي الجبل"، "وشربتُ جمرك يا مدينة"، و"وحي المرابع"، التي ترتبط بمكانين جغرافيين هما: (الريف/المدينة).

أ. الريف فضاء مفتوح:

يبدو الريف في قصائد بومنجل فضاء مفتوحا، لأنّ محاسنه لا تُحصى، ففي قصيدة (بدوي الجبل) تتردّد أمكنة جغرافية ريفية تُترجم أحاسيس الشاعر وشوقه إلى الريف الذي هو سرّ الحياة السعيدة التي عكّر صفوها جوّ المدينة، فالريف أفق واسع، والمدينة جدار وسور وسجن، ومن الأمكنة الريفية: (روضة الريف، شرفة الجبل، تربة، الجداول، الحقل، الروابي...) وهي أماكن مفتوحة من وحي الطبيعة (حيث المسافة مفتوح جوانبها/ والأفق يمتدّ).،

وفي قصيدة (وحي المرابع) تحتل أماكن الصدارة تمثّل ذكريات الشاعر وأشجانه وأفراحه وأتراحه وكأنّه يريد أن يسترجع صورا من أيام طفولته، حيث يستعمل الظروف المكانية (ف**هنا** غدوت، و**هنا** ركضت، و**هنا** مشيت، و**هنا** كتبت)، كما يذكر الأماكن (سفح التلال، في ذلك السرب القريب، هناك في الجبل، الحقول، تراب).

ب . المدينة فضاء مغلق:

لم تكن (المدينة) حيّزا جغرافيا يشفي غليل الشعراء؛ لأنّها وإن حقّقت مطالبهم المادية لم تكن تُرضي أرواحهم التوّاقة إلى القيم الإنسانية والمثل العليا كالحرية والمحبة و الإخاء، وإلى فضاء فسيح من الطبيعة الخلابة التي ألفوها في الريف قبل نزوحهم إلى المدينة.

فاصطدم الشعراء بهذا الواقع الجديد، وحالت (المدينة) فضاء مغلقا؛ لأنّ الحياة فيها محدودة، وسحر الطبيعة منعدم، ففي قصيدة (وشربتُ جمرك يا مدينة) يستيقظ الشاعر في مطلع النهار لينعم كعادته .كما كان في الريف . بشفق الصباح، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور... فتقابله بيئة جغرافية محصورة ضيقة كالسجن، وهي المدينة (فقام يصفعني الجدار، يصرعني الضجيج، أشواك الحديد، وراء السور، فيردّني الجدار، يتبعني الحصار).

وإلى جانب البيئة الطبيعية، هناك البيئة الاجتماعية، فالمدينة في قصيدة (بدوي الجبل) حيّز لـ (الأخلاق السافلة، والعداوة، والحضارة المزيّفة)، وفي قصيدة (وشربت جمرك يا مدينة): "الشوارع حزينة، ضجيج، مقيد الأشواق، منطفئ الحياة، قوالب الاسمنت تلتهم المشاعر، انكمشت خلايا الروح، قسمة ضيزى..". بينما الريف مكان ومدرسة للأخلاق والقيم والشهامة والعزة والإباء، يقول الشاعر في قصيدة (بدوي الجبل) (بومنجل، ديوان الدك(تا)تور، 2009، الصفحات 74-75) :

نعم، أتينا من الجبال، في دمنا روح الإباء؛ أصرنا نبضه دينا
جئنا نقوّم أخلاقا لكم سفلت باللطف حينا، و أطراف القنا حينا

4.3. الخيال البيئي:

عرّف شوقي ضيف "الخيال" بقوله: "هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنّما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم وتظل كاملة في مخيلتهم حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يحبّونها، صورة تصبح لهم، لأنها من عملهم وخلقهم، والخيال عند الأدباء يقوم على شيئين: دعوة المحسات والمدركات، ثم بناؤها من جديد" (ضيف، 2004، صفحة 167) . ومعنى هذا أنّ الخيال موهبة فطرية، وهي قدرة الأديب أو الشاعر على إبداع صور جديدة من وحي الذاكرة عن طريق الإحساس والإدراك.

و الخيال البيئي نوع من أنواع الخيال، وسُميّ بهذا الاسم لاتّصاله بالطبيعة ، وهو مصطلح صاغه الناقد الانجليزي"لورنس بويل "«Lawrence Buell» صاحب كتابي: "الخيال البيئي The Environmental / Imagination"، و"مستقبل النقد البيئي : الأزمات البيئية والخيال الأدبي."، ويُراد "التمثيل الأدبي للطبيعة".

وقد أوتي الشاعر بومنجل هذه الملكة و القدرة على الخلق والإبداع لصور (الريف/المدينة) في قصائده، فظهرت صورة الريف فائقة الجمال، وصورة المدينة في هيئة تزدريها النفوس وتنفر منها القلوب.

تتحرك عناصر الطبيعة لتنسج خيوط مشهد الحياة الريفية، ففي قصيدة (بدوي الجبل) تسمو الطبيعة على عالم البشر، بمناظرها، وحسنها وجمالها، وهي مصدر إلهام الشاعر، ووحي إنشاده، يُنسب لها الفضل والخير.

وأدّى الخيال دورا بارزا في رسم لوحة فنية في غاية الجمال والمتعة للحياة في الريف، حيث أخذت الاستعارة مساحة كبيرة من قصائد الشاعر، ففي قصيدة (بدوي الجبل) تزدهي الطبيعة (حيث السنابل والأطيار تؤوينا، الفراشات تغذونا، الجداول والأشجار تطربنا، نملأ الحقل من أنوار بهجتنا، في تربة من سماء الريف قد نبتت فينا البراءة، نزرع الحلم)، وهذه العناصر مكتملة ترسم معالم صورة شعرية للأمل والتفاؤل والسعادة والبهجة في الريف.

وفي قصيدة (وحي المرابع) يصوّر الشاعر الأماكن التي تربّى فيها، ويسترجع ذكريات سابقة تعود إلى عهد الطفولة ، حيث يجرّه الحنين إليها، فالتراب سرّ بقدومه، وتعلم الإباء والعزة من الجبل الأبيّ ، ومن تلك الطبيعة الساحرة تدفّقت شاعريته منشدا، فالعين ترى المناظر، واللسان يتذوق الماء العذب الفرات، واليد تلامس الجمال، والأذن تسمع أصوات الطيور، وتتوالى في القصيدة الاستعارات التي تجسّد الطبيعة في صور حسيّة، وتُحيل الطبيعة الصامتة إلى ناطقة متحركة تشارك أحاسيس الشاعر (شممت ريح طفولتي، وللتراب مسرة، هناك في الجبل الأبيّ تشرّبت، تسلقت رتب المكارم)، ثم يدعو الأرض التي احتضنته أن تُعيد أيام طفولته، فيتذوق طعم الحب (بومنجل، ديوان، 2021):

وأذوق سرّ الحبّ حيث سماؤه سقفي، ورائحة التراب ترابي

أمّا المدينة وواقعها المعيش فقد كانت صورتها ممقوتة عند الشاعر، لأنّه لم يجد ما يروي ظمأه غير المظاهر المادية من بنايات وحياة محاصرة بالجدران، ففي قصيدة (وشربت جمرك يا مدينة) يصوّر الشاعر المدينة عبر المتخيّل الشعري، حيث يشبهها بالجمر الذي شرب منه واكتوى بلهيبه، وهنا إشارة إلى قساوة الحياة فيها، وطول المعاناة، وهو جدار حال دون تحقيق الأماني، وإسمنت قضى على المشاعر، كما شبّهها بالقبر، لأنّها لا يوجد فيها طعم الحياة، ولا يوجد فيها الهدوء والسكينة، وكلّ ما فيها كالسراب (فعلمت بحرك ليس من ماء الحياة وإنّما هو من غبار، ورأيت نحرك ليس يلتحف الجمال وإنما هو يلتحف الشعار).

5.3. قيم أخلاقية وإنسانية بيئية:

قد يتعلّم الإنسان من البيئة الطبيعية ما لا يتعلّمه من بني الإنسان من القيم الخلقية والإنسانية، والشاعر المهجري إيليا أبو ماضي ضرب لنا أروع الأمثال في شعره نحو قوله في (قصيدة الطبيعة) (أبو ماضي، د.ت، صفحة 183) :

روض إذا زرته كئيبا نفّس عن قلبك الكروبا

يعيد قلب الخليّ مغرا ويُنسي العاشق الحبيبا

إذا بكاه الغمام شقّت من الأسى زهره الجيوبا

وتعدّ الطبيعة عند الشاعر عبد الملك بومنجل مصدر إلهامه، ووحي إنشاده. ففي قصيدة (بدوي الجبل) يعتز الشاعر ببدويته، وأنّ قدومه إلى المدينة كان من أجل تعليم الناس أخلاق الأنبياء، وخصالهم، يقول الشاعر (بومنجل، ديوان الدك(تا)تور، 2009، صفحة 72) :

من روضة الريف جئنا ننشر الدينا نعلّم الناس أخلاق النبيّـنا

وكانت مدرسة أخذ منها الدروس والعبر، حيث تعلّم منها البراءة، التفاؤل، وحبّ الجمال، والعزّة، الشهامة والإباء، يقول الشاعر (بومنجل، ديوان الدك(تا)تور، 2009، الصفحات 72-74):

في تربة من سماء الريف قد نبتت فينا البراءة، روضا من تصافينا

نعم أتينا من الأجبال، في دمنا روح الإباء؛ أصرنا نبضه دينا

أمّا البيئة الاصطناعية وهي المدينة فهي على خلاف الريف، إذ لم تمنح له شيئا من القيم الأخلاقية والإنسانية؛ لأنّ الطبيعة محجوبة، لكَم كانت الصدمة عنيفة على الشاعر أن يرى القيم الهجينة، والحرية المحدودة، ويضيّع أشواقه الخضراء التي استمدّها من الطبيعة، فلا ظلّ ولا طيور ولا ندى ولا أشجار إلاّ الجدار والاسمنت الذي التهم مشاعره وحسّه، فالشاعر كان يأمل من مغادرته الريف التخفيف من المعاناة وطول العناء، لكن الحصار يلاحقه، إذ يقول (بومنجل، ديوان عناقيد الغضب، 2016، صفحة 45):

ورأيتني غادرت من ريف العناء حصاره

وقدمتُ يتبعني الحصار

لقد توفّرت القيم الأخلاقية والإنسانية في القصائد الثلاثة ، لقد عبّرت عن وعي الشاعر بالأضرار التي حاقت بالمنظومة الطبيعية التي تعرّضت في المدينة إلى الاتلاف بالحديد والاسمنت، والبنايات، و كان ذا حاسة أخلاقية وجمالية في تعامله مع المنظومة البيئية، إذ عبّر عنها جماليا بخيال أخاذ ساهم في تربية الذوق الطبيعي عند المتلقي، فنحن عند قراءتنا لقصيدة "بدوي الجبل" أو "وحي المرابع" نتفاعل معهما وجدانيا، حيث تغمرنا نشوة الفرح والبهجة والأمل والسعادة للعيش في الريف والتمتّع بجمال الطبيعة وسحرها (نملأ الحقل من أنوار بهجتنا ونستحم على أطراف وادينا)، في حين عندما نقرأ قصيدة (شربت جمرك يا مدينة) يغمرنا الشعور بالتذمر واليأس، لأنّ المدينة ليس فيها إلاّ (شوارع حزينة، قيم هجينة، أضعت أشواقي الجميلة، وأنا وراء السور منطفئ الحياة...)

إذًا تمثّل البيئة مصدرا مهمّا عند الشاعر لاسيما الطبيعة التي كانت كتابا مفتوحا، وأكبر معلّم له، أخذ من دروسها وعبرها حتى تألّق إلى المراتب العليا في عالم الشعر.

6.3. التناص البيئي:

التناص Intertextualité مصطلح وضعته الناقدة جوليا كريستيفا، ويُطلق على كلّ أشكال الأخذ من نصوص أدبية سابقة، فالنص الأدبي عند كرستيفا "هو لوحة فيسفائية من الاقتباسات" (أنجيلو و المديني، 1985، صفحة 102). وقد "انحدرت أصوله من البلاغة العربية تحت أسماء كثيرة ك (السرقات الشعرية)، أو (الاختلاس)، أو (الأخذ)، أو (نقل المعنى إلى غيره)، أو(المشترك)، أو (نسيان المحفوظ)، أو (التضمين والاقتباس)" (عوف، 2020، صفحة 130).

والتناص البيئي هو أن يأخذ الأديب في عمله الأدبي من نصوص بيئية سابقة، تحتفي بالبيئة والطبيعة ، ومن هنا فقد انتقل مصطلح التناص إلى مستوى البيئة. وقد يمزج الشاعر بين نصين أحدهما بيئي، والآخر غير بيئي.

وقد وُجد التناص البيئي في قصائد الشاعر عبد الملك بومنجل ، إذ يشاطر كثيرا من تصورات شعراء احتفوا بالبيئة إلى حدّ يمكن عدّ نصوصهم بيئية، وهذا التقاطع كان عفويا سببه وحدة المشاعر أو الشعور المشترك بين الشعراء، واتّفاقهم في وجهات نظر واحدة حول البدو والحضر، فجلّ الشعراء يجمعون على أنّ المدينة تنطوي على شرّ غير قليل، وأنّ الريف فيه من مظاهر الحسن ما يريح النفس، و في مقدمتهم الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري وقصيدته (ما في البداوة من عيب)؛ وإن كان الموقف الشعري مختلفا، فالأمير عبد القادر كانت قصيدته جوابا للأمراء: أيّهما أفضل البدو أو الحضر؟ فافتتحها بقوله (الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 22) :

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر وعاذلا لمحبّ البدو والقفر

وتختلف القصائد الثلاثة باختلاف السياق والموقف الشعري، حيث كانت قصيدة (بدوي الجبل) ردّا على موقف شعري وهو جلف من المدينة يهجو أصحابه وينعّتهم بالبدوية، في حين (وشربت جمرك يا مدينة) كانت إجابة عن الجدل القائم بين الريف والمدينة. أمّا قصيدة (وحي المرابع) فهي دفاع عن الحياة الريفية باعتبارها المحطّة الأولى من حياة الشاعر وطفولته وذكرياته

ويتقاطع الشاعر بومنجل مع هذه القصيدة شعوريا في وصف محاسن البيئة الريفية من جمال منظرها في قصيدتي (بدوي الجبل، ووحي المرابع)، و كان هذا التناص عفويا. مردّه الموقف الشعري للشاعرين، كلاهما يعشقان الريف، يقول الأمير عبد القادر (الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 23):

أوَجلت في روضة، قد راق منظرها بكلّ لون، جميل شيّق عطـر

تستنشقنّ نسيما طاب منتشقـا يزيد في الروح، لم يمرر على قـذر

فيا لها وقفة لم تبق من حـزن في قلب مضنى، ولا كدّا لذي ضجر

ويفتخر الشاعر بقيم الشجاعة والإقدام والكرم كما هو الشأن عند الأمير عبد القادر، إذ يقول (الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 27) :

من لم يمت عندنا بالطعن، عاش مدى فنحن أطول خلق الله في العمر

ويقول الشاعر بومنجل (بومنجل، ديوان الدك(تا)تور، 2009، صفحة 72) :

أو بالشهامة والإقدام نزرعه على الدروب، فيجتاب الميادينا

وعن الكرم يقول الشاعر بومنجل (بومنجل، ديوان الدك(تا)تور، 2009، صفحة 73):

إذا رضينا ملأنا الأفق مكرمة وإن غضبنا ملأناه براكينا

ويقول الأمير عبد القادر (الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 26):

نبيت؛ نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة، من جوع ومن خصر

ويشترك الشاعر بومنجل في قصيدة (شربت جمرك يا مدينة) مع الشاعر محمد عبد المعطي حجازي في قضية الحرية بين المدينة والريف، إذ يريان أنّ المدينة محصورة بجدران يعني أنّ الإنسان لا يجد الحرية التامة، في حين الأفق واسع رحيب في الريف، يقول الشاعر بومنجل عن المدينة (بومنجل، ديوان عناقيد الغضب، 2016، صفحة 43) :

ونظرت ألتمس المدى ينساب في شفق الصباح

فقام يصفعني الجدار

ويقول محمد عبد المعطي حجازي عن الريف (حجازي، 1982، صفحة 442):

أمامنا لا سقف ولا جدار

أمامنا المدى

مخضوضر في المغرب الشتوي

صافي الاخضرار

ويقول بومنجل مؤيدا المعنى الذي ذهب إليه حجازي في بيت شعري جامع وبليغ (بومنجل، ديوان الدك(تا)تور، 2009، صفحة 73):

حيث المسافة مفتوح جوانبها والأفق يمتدّ حرّا في سواحينا

وكانت لمسة الشعر الأندلسي في قصائد الشاعر بومنجل واضحة المعالم، وخاصة نونية ابن زيدون التي عارضها في قصيدة (بدوي الجبل) محافظا على الإيقاع الشعري من القافية نفسها والوزن الشعري نفسه (بحر

البسيط)، وحضور عناصر الطبيعة: (تصافينا، رياحينا، الحقل، الشمس، الريح...)، هذا الذي جعلنا كأنّنا وسط الطبيعة الأندلسية ، وتعود إلى خواطرنا حواضرها كاشبيلية وغرناطة..

وإجمالا فإنّ التناص البيئي عند الشاعر بومنجل لم يكن تقليدا للشعراء السابقين، وإنّما كان وليد اتفاق الرؤى والموقف الشعري حول المدينة والريف، الأمر الذي جعله يشترك في أفكاره وذوقه مع كثير من الشعراء المعاصرين.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة نقرّ بصعوبة تطبيق هذا المنهج النقدي الجديد والفتيّ وهو النقد البيئي على المدونة الشعرية والسردية لتداخله مع مناهج أخرى كالمنهج الاجتماعي والنقد الثقافي والنقد الجمالي، وقلّة الدراسات حوله لحداثته، حيث كانت معظمها جهودا فردية من خلال بحوث أكاديمية ومقالات ومداخلات، ولا تزال بعض مصطلحاته غامضة تحتاج إلى دراسات لتقريب مفاهيمها النقدية من القارئ العربي، ولا أزعم أنّي أوفيتُ هذا المنهج حقّه من الدراسة والتحليل، لكني أرجو أن أكون قد أوفيتُ الشاعر بومنجل حقّه وأنصفته في قصائده التي كانت موضع الدراسة في رحلة البحث عن المادة البيئية وحضور الطبيعة وثنائية المدينة والريف في شعره.

وبناء على العناصر التي تمثّل ركائز النقد البيئي (المعجم البيئي، جماليات المكان، الخيال البيئي، قيم أخلاقية وإنسانية بيئية، التناص البيئي)، وبعد تطبيقها على المدونة الشعرية توصّلتُ إلى النتائج الآتية:

. إنّ العلاقة بين الأدب والبيئة ليست جديدة، فالشعر العربي معظمه شعر بيئي على اختلاف الشعراء في ملكاتهم وقدراتهم اللغوية على التعبير عن بيئاتهم الطبيعية والجغرافية.

. للمكان علاقة وطيدة بخيال المبدع، هو ما يجعله أكثر شعرية، سواء أكان المكان مفتوحا أو مغلقا، هذا ما نجده في قصائد الشاعر بومنجل (الريف/المدينة)، حيث تظهر المدينة مكانا مغلقا محاطا بأسوار، والريف فضاء مفتوحا ممتدا.

. يشترك الشاعر بومنجل في التجربة الشعورية مع كثير من الشعراء المعاصرين في موقفه من المدينة وحبّ الحياة الريفية وإيثارها لما فيها من الخير والجمال والحرية.

. يتميز الشاعر بومنجل بملكة وقدرة لغوية ومهارة في اختيار معجم شعري بيئي مناسب جعله يقدّم الريف في صورة أبهى وأجمل، والمدينة في صورة مذمومة.

. تتميّز قصائد بومنجل بغناها بالقيم الأخلاقية والإنسانية، حيث جعل من الطبيعة مدرسة وخير معلّم لهذه القيم.

. لقد أوتي الشاعر بومنجل ملكة الخيال وخصوبته من خلال قدرته على الخلق والإبداع لصور (الريف/المدينة) في قصائده، فظهرت صورة الريف فائقة الجمال، وصورة المدينة في هيئة تزدريها النفوس وتنفر منها القلوب.

قائمة المراجع:

1. *larousse.* (s.d.). Récupéré sur //www.larousse.fr: https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais-monolingue
2. إبن زيدو ن يوسف فرحات. (1994). *الديوان* (المجلد 2). بيروت: دار الكتاب العربي.
3. أحمد عبد الكريم سلامة. (1998). *قانون حماية البيئة*. القاهرة، مصر: دار النهضة العربية.
4. أحمد عبد المعطي حجازي. (1982). *الديوان*. بيروت: دار العودة.
5. الأمير عبد القادر الأمير عبد القادر. (1960). *الديوان*. دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.
6. امرؤ القيس، و إبراهيم مجد أبو الفضل. (1984). *الديوان*. مصر : دار المعارف.
7. إيليا أبو ماضي. (د.ت). *الديوان*. بيروت: دار العودة.
8. إيمان مطر السلطاني. *النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة*.
9. إيمان مطر السلطاني. (بلا تاريخ). *موقع مجلة اللغة العربية وآدابها* . تم الاسترداد من https://journal.uokufa.edu.iq/index.php/arll/article/view/254
10. *بوابة الشعراء*. (19 01، 2007). تم الاسترداد من https://poetsgate.com: https://poetsgate.com/poem.php?pm=12272
11. جميل حمداوي. (19 03، 2012). *www.alukah.net/*. تم الاسترداد من شبكة الالوكة: https://www.alukah.net/literature_language/0/39426
12. جميل حمداوي، و حسن اعراب. (2020). *النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن*. المملكة المغربية: دار الريف للطباعة والنشر الالكتروني.
13. سعيد محمد هاني علي. (2022). النقد الأدبي البيئي؛ قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئية، وممارسة تطبيقية على قصة " رأيت النخل" لرضوى عاشور. *مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية* ، *26* (2).
14. شوقي ضيف. (2004). *في النقد الأدبي*. القاهرة: دار المعارف.
15. عبد المجيد السملالي. (2006). *الوجيز في قانون البيئة*. دمشق : دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.
16. عبد الملك بومنجل. (2021). ديوان. *طهر الجداول* ، *ط1* .
17. عبد الملك بومنجل. (2009). *ديوان الدك(تا)تور*. قسنطينة، الجزائر: منشورات مكتبة اقر.
18. عبد الملك بومنجل. (2016). *ديوان عناقيد الغضب*. العلمة، الجزائر: البدر للطباعة والنشر.
19. عبد الملك مرتاض. (1986). *بنية الخطاب الشعري" دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية*. بيروت، لبنان: دار الحداثة.
20. عبيد بن الأبرص، و أشرف أحمد عدرة. (1994). *الديوان*. بيروت: دار الكتاب العربي.
21. عمر أحمد مختار. (2008). *معجم اللغة العربية المعاصرة* (المجلد 3). القاهرة، مصر: عالم الكتب.

22. فريد عوف. (2020). إشكالية المصطلح البلاغي في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر. *مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ، 17* (3).
23. مارك أنجيلو، و أحمد المديني. (1985). *مفهوم التناص في الخطاب النقدي الجديد*. الدار البيضاء،: عيون المقالات.
24. نعيمة ميخائيل. (1991). *الغربال* (المجلد 15). بيروت، لبنان: نوفل.
25. نعيمة ميخائيل. (1988). *النور والديجور*. بيروت: مؤسسة نوفل.